بِسمِ اللَّهِ الحقِّ العَدلِ، أَصلِ كلِّ حقٍّ ومَآلِهِ، وأصلِ كلِّ عَدلٍ ومَآلِهِ.
- فضيلةَ الإمامِ الأكبَرِ شيخِ الأزهرِ الشَّريفِ.
- أصحابَ الفخَامةِ والمَعَالِي والفضِيلةِ والسَّعادَةِ.
- أصحابَ السِّيادةِ والغِبطَةِ والنِّيافَةِ.
- الحفلُ الكَريمُ.
فِي رِحابِ أزهرِ الإنسانيَّةِ قاطِبةً نَلتَقِي، وتَسعُنَا مِصرُ الكنَانَةُ، الَّتِي مَا ضاقَت يومًا ولَا تقَاعسَت بشَرَفِ الجِهادِ رِفعَةً لرايةِ التَّوحيدِ والتَّسامُحِ والتَّوسيطِ.
السَّيِّداتُ والسَّادةُ:
لن أُنكِرَ علَى أحَدٍ ظاهِرَ دهشَةٍ والصَّدمةَ والجزَعَ، ولن أُنكرَ علَى أحدٍ ملامِحَ الخَيبَةِ، ولن أُنكِرَ التَّباكِي والبحثَ فِي قَاموسِ الوَجَلِ واللَّوعَةِ، ولن أُنكرَ علَى خصمٍ فاجِرٍ إن طُعِنَ بغَدرٍ أو أَتانَا من ثُغورٍ!، نحنُ مَن تركنَاهَا كَلاًّ مُستباحًا.
ولكِن يَا سادَةُ:
مئةُ سَنَةٍ من فعلِ الدَّهشَةِ والتَّباكِي تكفِي وتَزيدُ، فالدَّهشَةُ ليست قَدَرًا تَاريخيًّا، ولَا وظيفَةً سياسيَّةً، ولَا هَي فضِيلةٌ إنسانيَّةٌ، ولَا هيَ سَنَدُ عُذرٍ قانونِيٍّ اِسمُهُ العُذرُ بالدَّهشةِ، فالدَّهشَةُ هيَ تجَلِّيَّاتُ الغَفلَةِ المُؤَجَّلَةُ، والتَّاريخُ لَا يَرحَمُ المُندَهِشِينَ.
الحَفلُ الكَريمُ:
تَعلَّمنَا شرقًا وغربًا فِي ١٠٠ سنةٍ أو تزيدُ أنَّ الاستِغراقَ فِي أفعالِ البِيرُوقرَاطِيَّةِ وَكَفَى لَا يَردَعُ عَدوًّا، وَلَا يَستَنصِرُ صَدِيقًا، أولَى منهُ التَّعلُّمُ من دروسِ المَاضِي القريبِ، فلم يَعُد من وقتٍ للتَّذَرُّعِ؛ لأنَّ طريقَ المستقبلِ تَصُدُّه صخرةُ الاحتلالِ، فكَم من صخرَةِ احتلالٍ تَفَتَّتَت!، وَجدنَا بعدَهَا عن الطَّريقِ، وكم من صخرةٍ أُزيحَت وستُزَاحُ! وتبقَى بعدَهَا وِجهَةُ المُستقبلِ غائمةً وغائبةً.
المُستقبلُ يَا سادَةُ طَرِيقُهُ التَّنويرُ والعلمُ واقتِفَاءُ العدلِ واليقينُ بأنَّ الحريَّةَ هيَ جوهرُ الإنسانيَّةِ. طَريقُ التَّنويرِ والعلمِ طويلٌ أَمَدُهُ ثقيلٌ، واقتِفَاءُ العدلِ والحريَّةِ فيهِ مسارٌ واجبٌ لَا يُحابِي ولَا يُجامِلُ ولَا يَقبلُ بغيرِ أهلِهِ.
السَّيِّداتُ والسَّادةُ:

إن كانَ الحُكمُ علَى الشَّيءِ فرعٌ عن تَصَوُّرِهِ فلن يستقيمَ لنَا حُكمٌ فِي شأنِ مستقبَلِنَا وقُدسِنَا وَأقصَانَا إلَّا إن رَاعَينَا حالَ عَالمِنَا وإقلِيمِنَا وحَالِ الإنسانِيَّةِ فينَا.
تَحَدِّينَا المَبدئِيُّ أن نَعرِفَ ونحنُ نَتَصَدَّى لقضَايَانَا المَصِيرِيَّةِ -قضَايَا البقَاءِ والوُجودِ-، أن نعرِفَ فِي أيِّ عالَمٍ نَحيَا، وأيِّ إنسانيَّةٍ نُخاطِبُ، وَمِن أجلِ أيِّ بشَرٍ نُصلِحُ ونَنهَضُ.
وَنحنُ إقليمٌ كذبَ الشَّرفُ فيهِ أو كادَ، حتَّى بَدَا وكأنَّنَا اكتفَينَا وَاستغنَينَا وتَعَالَينَا، لَا نَملِكُ علَى الوَعيِ اكتفَاءً ولَا استغنَاء ولَا تَعَالِيًا، فَالوَعيُ هوَ مَنشَأُ كلِّ فِعلٍ قَويمٍ حتَّى لو كانَ دهشةً أو اِستدرَاكًا أو غضَبًا، حتَّى وإن صَحَّ الوصفُ فينَا بأنَّنَا إقليمٌ استقَالَ من الوعيِ قرَابَةَ الخَمسِمَائةِ سنَةٍ، انكَفَأَ مِن العالَمِ ولم يُشاهدهُ لقُرونٍ، وَشَاهَدَهُ ولم يُبصرهُ لقُرونٍ، وإنَّ أكبرَ إسهَامَاتِنَا الفِكريَّةِ هيَ التَّلَقِّي بغيرِ نَقدٍ لكلِّ مَا هوَ جديدٌ، أو الانتِكاسُ بغيرِ نَقدٍ لكلِّ مَا هُوَ قَديمٌ، ليسَ أَمَامَنَا إلَّا أن نَستدرِكَ ونَعِيَ فُرُوضَنَا الحضَاريَّةِ، فنحنُ أُمَّةٌ حيَّةٌ، قَدَرُهَا القِيَادَةُ إن وَعينَا قَدَرَنَا، وإن بَقينَا بينَ رَحَى أَسرَنَةٍ وَسَلفَنَةٍ كِلاهُمَا بغيرِ عَقْلٍ، آنَ لَنَا أن نعرِفَ بأن لَا نجاةَ لنَا إلَّا بِوَعيٍ هوَ مَنَاطُ كلِّ قُدرَةٍ.
السَّيِّداتُ والسَّادةُ:
البحثُ فِي أَصلِ الوَعيِ تكلِيفٌ فِي ذَاتِهِ، تكلِيفٌ يورثُ الوسعَ ويَبنِي القُدرَةَ.
الحَفلُ الكَرِيمُ:
حاضِرُنَا يقولُ بِأنَّنَا الآنَ نحنُ والعَالَمُ فِي لحظَةٍ فَارِقَةٍ، لَيست كمَا تَبدُو لحظَةَ تَغيِيرٍ جذرِيٍّ للخَرائِطِ الجُيوسِياسِيَّةِ فِي المنطقَةِ العربيَّةِ وَفقط، وَلكِنَّها لحظَةٌ يُعادُ فيهَا طَرحُ فلسفَةِ العُصورِ الَّتِي سَبَقَت بالنَّقدِ والنَّقضِ؛ هيَ لحظةُ استِشرَافِ عصرٍ إنسانيٍّ جديدٍ تَتَغَيَّرُ فيهِ الحقائِقُ قَبلَ الخَرَائِطِ، فحقَائِقُ القُوَّةِ والقُدرَةِ وَالمبادءَةِ والنُّفوذِ والمَوارِدِ والفقرِ، وَحَقائِقُ الاقتِصادِ والحربِ، بل وحقائِقُ العَقلِ نفسِهِ، كُلُّهَا تَتَغَيَّرُ فِي العَالَمِ الآنَ، وَنَصِيبُ العَالَمِ الإسلامِيِّ والعربيِّ منهَا كَبِيرٌ إذَا وَعينَاهَا، ليسَ بالسَّلبِ ولَا بالفصلِ كمَا يُرِيدُهَا البعضُ، ولكِن بحقائِقِ فُرَصٍ جديدةٍ للنِّدِّيَّةِ والشَّرَاكَةِ، بل وللِقِيادَةِ فِي نِظَامٍ عالَمِيٍّ جديدٍ يَتَشَكَّلُ.
السَّيِّداتُ والسَّادةُ:
تَجِيءُ لحظتُنَا تلكَ فِي حالةِ سيولَةٍ بامتيازٍ لَا يُمكِنُ القطعُ فيهَا بِثُنَائِيَّةِ قوَّةٍ، ولَا بقُطبِيَّةِ الإمبراطوريَّةِ، عالَمُنَا الجديدُ هوَ عالَمُنَا مَا بعدَ الأيديولوجِيَّةِ،

قوامُهُ تَعدُّدُ الأقطَابِ، تَتَغَيَّرُ فيهِ مَوازِينُ القُوَى بينَ نُمُوٍّ وانحِسَارٍ بشكلٍ أقربَ إلَى بورصَةِ القُوَّةِ، وَسَهمُ القوَّةِ فِي بُورصَةِ قُوَى العَالَمِ الجديدِ تَصنَعُهُ ثُلَاثِيَّةُ سُلطَةِ السِّياسَةِ، وَسطوَةِ الاقتصَادِ، وقُوَّةِ الحُكمِ المُستخلَفِ فِي الشُّعوبِ، وَستأتِي قوَّتُه مُوزَّعةً فِي أطرافِ تلكَ القُوَّةِ الثُّلاثِيَّةِ وَمُتَكَامِلَةً فيهَا. فَالتَّناغُمُ والتَّشاحُنَ بينَ سُلطةِ السِّياسةِ وَسَطوَةِ الاقتصادِ وقُوَّةِ الحُكمِ لدَى الشُّعوبِ هوَ مَا سيُعطِي لكلِّ أُمَّةٍ نصيبَهَا من القُوَّةِ أو الضَّعفِ، ومَا سيُحدِّدُ مسارَ تلكَ القُوَّةِ صُعودًا وَهُبُوطًا وَاستِدَامَةً.

السَّيِّداتُ والسَّادةُ:

ذلكَ هوَ جَوهَرُ تلكَ الحقائِقِ الَّتِي تَغَيَّرت وَبِعُمقٍ، فَالَّذِي تَغَيَّرَ هوَ حقيقةُ مفهومِ قُدُرَاتِ الشُّعوبِ، وَتعريفُ مَوارِدِهَا التَّعريفَ ذاتَهُ قد تَغَيَّرَ، وهوَ الَّذِي سيخلُقُ الحقائِقَ والخَرائِطَ الجَديدَةَ.

الحَفلُ الكَرِيمُ:

هيكَلُ عالَمِنَا القادِمُ لن يستطيعَ أحدٌ القَطعَ بهِ حتَّى الآنَ؛ لأنَّهُ يَتَشَكَّلُ من واقعٍ أقربَ إلَى الواقعِ الكونِيِّ غيرِ المُستقِرِّ واقعِ مَوَارِدِهِ، مَوارِدُ الاقتصادِ فيهِ هيَ المعرفةُ، والحربُ فيهِ ميادينُ العقولِ قبلَ الجغرافيَا، وقُوَّةُ تَشَكُّلِهِ هيَ وَعيُ كلِّ أُمَّةٍ بقُدراتِهَا علَى الشَّراكَةِ والقيادَةِ والاحتكارِ إن أرادت.

أَيُّهَا السَّيِّداتُ والسَّادةُ:

وَاطلاعًا منَّا بأمانةِ الوعيِ فِي شأنِ فروضِنَا التَّاريخيَّةِ: آنَ لنَا أن نضَعَ مَلامِحَ أُطروحَةٍ إسلاميَّةٍ وعربيَّةٍ للمُستقبَلِ قد يَضِيقُ المَقامُ بتَفصِيلِهَا، ولكنَّ ملامحَهَا يَلزَمُ ألَّا تَضِيقَ بِسِمَاتِ العقلِ المُغيَّبِ قُرُونًا.

أُطروحَةٌ جادَّةٌ أكثرُ منهَا مثاليَّةً أو حالِمَةً، ولكنَّ الجِدِّيَّةَ فيهَا تَقتَضِي أن نعمَلَ فِي إطَارِ الوَاجبِ والمَطلوبِ، وليسَ فِي إطَارِ المَألوفِ والمُتَاحِ.

أطروحةٌ ترقَى بفِعلِ السِّياسَةِ إلَى مُنافسَةٍ أهليَّةٍ، وَبِفِعلِ الاقتصَادِ من إطعامِ البُطونِ إلَى تَرقِيَةِ البَشَرِ، وبفِعلِ الدِّينِ من وَهمِ الوصَايَةِ علَى الرِّقابِ إلَى حقيقةِ تحريرِ النَّاسِ.

أُطروحةٌ تُلزِمُ شُعُوبَنَا بِالتَّنوُّعِ ثَرَاءً كمَا أرادَهُ اللهُ، تَحمِلُهُم علَى القبُولِ بالاختِلافِ، تُقَسِّمُ القَوالِبَ المُنمَّطةَ بوَهمِ تَجييشِهَا حتَّى ولَو إلَى حذفِهَا.

أُطروحةٌ تُؤَسِّسُ الإبداعَ من أجلِ الحريَّةِ الَّتِي تَخلُقُ العَدلَ، وَتُقَسِّمُ الانغلَاقَ والجُمودَ وَالتَّخلُّفَ بِاسمِ العُرفِ تَارةً وَدَعوةِ الانضبَاطِ تارةً أُخرَى.

مَرَّةً أُخرَى: مائةُ سنةٍ من الدَّهشةِ تَكفِي وتَزِيدُ؛ فنحنُ أحياءٌ موجودُونَ بِقَدرِ أثرِنَا علَى هذِهِ الأرضِ إبداعًا وإعمارًا وتَغَلُّبًا، وبغيرِ ذلكَ لَا وجودَ لنَا، هذَا مَا فعلتهُ شعوبٌ غادَرَت الدَّهشةُ العقلَ؛ منهُم مَن حقَّقَ مَجدَهُ، ومنهُم مَن يَنتَظِرُ.

الحَفلُ الكَرِيمُ:

القُدسُ والأقصَى وقَبلَهُم أوطانُنَا ومستقبَلُنَا لَا يَحتاجُونَ الدُّموعَ حتَّى وإن صَدَقَت، ولَا التَّبَاكِي حتَّى وإن كانَ حقيقةً، ولكن يحتاجُونَ الفِكرةَ الصَّادقةَ من عقولٍ غيرِ مُتنازِلةٍ، ومِن وجدانٍ غيرِ شامِخٍ، عقولٌ تعرِفُ أيَّ وطنٍ تريدُ، وأيَّ مستقبلٍ تريدُ لأيِّ بشرٍ تريدُ فِي أمَّتِنَا وقدسِنا وأقصَانَا، الأقصَى لَا يحتاجُ الشَّفَقَةَ، بل يحتاجُهَا مَن لَا يَعِي ليعدِلَ فَيَعتَدِلُ، فَللأقصَى ربٌّ يَحمِيه وَسينصُرُهُ.

السَّيِّداتُ والسَّادةُ:

وإن اقتضَى عدلُ الخالقِ بأن لَا يُكَلِّفُ نفسًا إلَّا وسعَهَا، وبأن تكونَ القدرةُ هيَ مناطُ كلِّ تكليفٍ، واقتضَى تقديرُهُ بأن يكونَ الوعيُ هوَ مبتدأُ الاستغناءِ والعزَّةِ، ومدركُ القيادةِ والرِّيادَةِ وصونُ الحرِّيَّاتِ، فقد اقتَضَت حِكمَتُهُ بأن يكونَ الوعيُ هوَ مناطُ كلِّ قدرةٍ وجوهرُ العدلِ فيهَا.

أدامَ اللَّهُ علَى الأُمَّةِ أزهرَهَا؛ مَنارةً لحِمَاهَا، وَرَايةً لكِبرِيائِهَا، يحمِي ولَا يُضَيِّعُ، يَجمعُ ولَا يُفَرِّقُ. دُمتُم بوَعيٍ وخيرٍ.

وَسَلامُ اللَّهِ عَلَيكُم وَرَحمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ.